- ٧ -

الطريق إلى الحديبية

تحققت انتصارات هائلة للمسلمين يوم انسحب الأحزاب، ودحر اليهود وتطهرت المدينة من مكائدهم ومكرهم وجدالهم.. ومحاولاتهم المتكررة للنيل من الإسلام ونبى الإسلام..

.. وأصبحت المدينة فى موضع القوة..يعيش فيها رجال آمنوا بربهم .. فرسان بالنهار.. عابدون بالليل.. فى جو معطر بجلال الإيمان.. يسعى بينهم ويقود خطاهم محمد بن عبد الله أعظم من عرفته الحياة فى نبله .. وزهده.. وخشيته لله.. وعبادته له.. وطهارته.. ورأفته وحبه للمؤمنين.. ووحى السماء يهبط عليه.. يملى عليه قواعد الدين وأركانه.

لقد استقر المؤمنون فى المدينة.. وشعروا بالأمن.. وفى ظل هذه الظروف، نزلت آيات القرآن الكريم، ترشد إلى ما ينبغى أن تكون عليه زوجات الرسول، لأنهن القدوة والمثل لباقى المسلمات.. ففرض عليهن الحجاب.. لأن المرأة حتى ذلك الوقت..كانت فى لباسها كما كانت أيام الجاهلية.. تلبس من الملابس ما يظهر مفاتن صدرها.. كانت تستوى فى ذلك الحرة والأمة.. وكانت نفس عمر بن الخطاب تتوق إلى أن يفرض الحجاب على النساء..! إلى أن جاء وحى الله:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وإذا كان هذا الخطاب موجها لنساء النبى، حتى لا يطمع فيهن الذى فى قلبه مرض، أو بعض الجفاة من الأعراب الذين لم تهذبهم روح الإسلام بعد.. فقد نزل القرآن يعلم الناس آداب السلوك مع آل البيت.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ثم يوضح القرآن الكريم ما ينبغى أن تكون عليه نساء النبى فى ثيابهن.. وكذلك بالطبع نساء المسلمين..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وإذا كان لزوجات الرسول منزلة خاصة.. لأنهن أمهات المسلمين وقدوة للمسلمات.. فإن لهن جلالهن.. فقد حرم الله زواجهن بعد النبى لأحد..

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وإذا كان القرآن الكريم قد بيّن ما ينبغى أن تكون عليه نساء النبى، فقد وضع أيضا ما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة.. أن تكون طاهرة.. تبدو فى منظر محترم.. فعليها ألا يبدو منها إلا الوجه والكفين..

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وكان من عادة النساء فى الجاهلية، أن يضربن بأرجلهن، وكن يلبسن (الخلاخيل).. فيلفتن الأنظار إليهن.. فنهى الإسلام عن ذلك.. وقال تعالى:

﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

كان التشريع الإسلامى يوضح للناس ما ينبغى أن يكون عليه سلوكهم.. وفى نفس الوقت كان الرسول الكريم يواصل تدعيم الدعوة.. فهو يؤمن المدينة من الذين يحاولون انتهاك حرمتها من الأعراب الذين يحيطون المدينة.. وفى نفس الوقت يتأهب لتأخذ الدعوة طريقها إلى القلوب والعقول..

وهنا نتوقف أمام موقف عظيم من مواقف الرسول الكريم.. يوم خرج المسلمون وقد علموا أن هناك قافلة لقريش قادمة من الشام فتعرضوا لها، وأخذوا ما فيها من غنائم.. وكان فى هذه القافلة (أبو العاص بن الربيع) الذى كان زوجا لزينب بنت الرسول.. وقد فرق بينهما أنها اتبعت الإسلام، وظل هو على دينه.. وقد خشى الرجل أن تظن مكة أنه خانها، وأنه حن لزوجته بنت الرسول فتهاون فى حقوق أهل مكة.. فذهب إلى المدينة، واستجار بزوجته السابقة، وخير الرسول الكريم أصحابه الفئ.. فوافقوا عن طيب خاطر أن يتنازلوا عن هذا الفئ إكراما لبنت رسول الله، ورجع الرجل بأموال أهل مكة إليها.. ثم أعلن إسلامه ورجع إلى المدينة إلى زوجته بعد أن وحد بينهما من جديد الإسلام غير انها لم تلبث بعد ذلك إلا قليلا ورحلت إلى أكرم جوار، تاركه طفلة.. كانت قرة عين لجدها العظيم وكان اسمها (أمامة)..

وكان على النبى ﷺ أن يؤمن الدعوة، ويظهر قوة المسلمين وهيبتهم.. وأن دين الله جاء للعالم كله ولم يأت للمدينة أو مكة وحدها.. وكان عليه أن يوسع رقعة النفوذ الإسلامى.. وأن يزيل العراقيل التى تحول دون تقدم المسلمين.. والتى تحول دون أن يعيشوا فى أمن وأمان.. فهناك عند دومة الجندل قرى محصنة تهدد تجارة المسلمين إلى الشام.. فأرسل الرسول سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف إليها.. وكان فى هذه السرية

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومئات من صحابة الرسول.. وأمر النبى بلالا أن يعطى عبد الرحمن اللواء.. وقال له بعد أن حمد الله وصلى على نفسه:

-« خذ يا ابن عوف فاغز فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا بمن قتلتم، ولا تقتلوا وليدا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم»..

وعرف ابن عوف وجهته.. وأنها دومة الجندل.. فطلب من الرسول أن يسمح له بالزواج من ابنة سيدهم (الأصبغ) فى حالة الانتصار عليهم.. ووافق الرسول.. وتقدم عبد الرحمن بجيشه متجها إلى دومة الجندل.. وهو يحث الخطى خمسة عشر ليلة حتى وصل إلى هذه القرى المحصنة وحاصرها ثلاثة أيام.. بعد أن عرض عليهم الإسلام، آثر القوم السلام والإسلام وبايع (الأصبغ) عبد الرحمن.. وتقدم له عبد الرحمن يطلب يد ابنته (تماضر).. ووافق الرجل.. ودخل أهل هذه القرى فى الإسلام..

وكانت هناك أيضا قبيلة (بنى بكر بن كلاب) تقطع الطريق فأرسل إليهم النبى (محمد بن سلمة).. واستطاع مفاجأتهم وغنم الكثير من ماشيتهم.. وفى طريق العودة أسروا (تمامة بن آثال).. وهو من بنى حنيفة.. وكان راجح العقل وصاحب كلمة مسموعة فى قومه.. أسره المسلمون وهم لا يعرفونه، وعادوا به إلى المدينة فعرفه النبى ﷺ وأكرمه وأحسن إليه، وعرض عليه الإسلام فأبى، فتركه النبى إلى حال سبيله.. فلا إكراه فى الدين.. وعاد الرجل إلى قومه وهو مازال يتذكر كرم الرسول معه، فرجع إلى المدينة وأعلن إسلامه.. وذهب إلى مكة معتمرا.. وحاول أهل مكة إيذاءه ولكنهم تذكروا إنهم محتاجون إلى عشيرته التى تمدهم بالحبوب فآثروا الصمت على مضض.. وهم يرونه يطوف البيت دون أن يخفى إسلامه.. ومع ذلك فقد عاد الرجل إلى اليمامة ومنع الحبوب عن أهل مكة.. هؤلاء

الذين يناصبون نبيه العداء . .ويضمرون له البغضاء. .لا لشئ إلا حسدا وحقدا على النبى الخاتم. . إنهم لا يستحقون أن تمد لهم يدا بخير. . ولكن قريشا وقد خشيت مغبة هذا الحرمان من قمح اليمامة. . أرسلت للنبى ﷺ فى أن يتوسط لها لدى (ثمامة) حتى يعيد إليهم ما كان يبعثه أهل اليمامة إليهم من حبوب. . !

ولم تخجل قريش من ذلك. . فهم يعرفون معدن النبى الكريم. . معدن هذا الإنسان الذى طوى قلبه على الرحمة والبر بأهله. . هؤلاء الذين حاربوه. . ونكلوا بأصحابه. . وحاصروه وأهله فى إحدى شعاب مكة ثلاث سنوات. . ومع ذلك شفع لهم النبى !

* * *

obeikandl.com